مكتبة المقتطف

كتاب التصوف الاسلامي
في الادب والاخلاق
بقلم الدكتور زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف

يقع هذا الكتاب النادر المثال في نيف وأربعماية صفحة من القطع الكبير وهو مطبوع طبعاً جميلاً متقناً ويعد بحق موسوعة عظيمة الشأن في الادب الصوفي وقد أهداه مؤلفه الفاضل الى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول بعد إذ اهدى كتابه الاول « الاخلاق عند الغزالي » الى جلالة الملك الراحل فؤاد الاول ونال على كل من الكتابين من الجامعة المصرية لقب الدكتوراه في الفلسفة

والكتاب مصدر بمقدمة بقلم الاستاذ الجليل محمد جاد المولى بك ذكر فيها كيف عرف الدكتور زكي مبارك أوّل مرة معرفة شخصية حين أدى امتحان الدكتوراه الاولى أمام لجنة الجامعة المصرية في سنة ١٩٢٤ . وكان الاستاذ جاد المولى عضواً في هذه اللجنة من قبل وزارة المعارف قال فرأيته يهجم على حجة الاسلام الغزالي ويقسو عليه فلم يجد بدًّا من ان يتشدد في حسابه ليحجم عوده ويبز غوره . فعرف عند ذلك ان الدكتور زكي مبارك قد يقضي حياته في المصاولة والمجادلة لا استقر في النفوس من انهُ باحث متعمق مشاغب ولكنهُ حين رآه وهو يؤدي امتحانه امام اللجنة في سنة ١٩٣٧ لنيل اجازة الدكتوراه من الجامعة للمرة الثانية رآه يجادل لجنة الامتحان وهو آية من آيات الذوق والادب ومثال من أمثلة التواضع والاستحياء يستمع السؤال بهدوء ويجيب عليه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس ولما خلت اللجنة للمداولة قررت منحه درجة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف وهي شديدة الضن بالالقاب الا على المستحقين لا سيما وان اللجنة التي أدى امتحانه أمامها قد ضمت نخبة من أكابر العلماء من بينهم الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق (وزير الاوقاف الآن) والدكتور منصور فهمي بك والدكتور عبد الوهاب عزام

وفي الحق ان كتاب التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق يدل أبلغ دلالة على ان مؤلفه الفاضل قد بذل جهوداً جبارة في تنسيقه وتأليفه حتى جاء ذخيرة أدبية اخلاقية صوفية تضاف الى ثروة الادب العربي . وقد تناول الجزء الاول من الكتاب معالجة موضوعات مهمة منها فصل في اشتقاق كلة التصوف وعنده ان الأصح أن هذه الكلمة مشتقة من الصوف لشواهد

كثيرة ربما تؤيد هذا الفرض منها ان الانبياء والصالحين كانوا يؤثرون لبس الصوف فمن المحتمل ان يكون لصوفية لبسوا الصوف اولى الامر ليصح لهم الاقتداء بنواضع رسول الله . ومنها ان الصوف قديماً كان مظهر التخشن والتقشف كما كان من علامات الزهد ومن شعار الصالحين. ومنها « ان الجماهير كانت لا تمثل الصالحين الا في الثياب الصوفية » على ما رواه الزبيدي نقلاً عن كتاب بهجة الناظرين وان الامام الغزالي جعل لبس الصوف من صفات من يصرف اليهم ما يوصى به للصوفية . وختم الدكتور زكي محثه هذا بقوله ان لبس الصوف كان كذلك من تقاليد النصرانية وهي في اصلها تصوف وروحانية لما ان المسيح عليه السلام كان يؤثر لبس الصوف على ما عداه من أنواع الثياب . ولم يرتض الدكتور ما ارتضاه غيره من ان كلة التصوف قد تكون مشتقة من كلة سوفيا اليونانية ومعناها الحكمة بل انهُ لا يرى مانعاً من ان تكون كلة سوفيا ذاتها جاءت من كلة صوف العربية لانها قديمة في هذه اللغة ولان التصوف قديم جداً عند العرب وهو أساس المسيحية ولبس الصوف كان علامة التقشف وكلة سوفيا اليونانية قد تؤدي معنى الحكمة الروحانية فليس من المستبعد ان ترحل كلة صوف الى العابد المسيحية . ولكننا نخالف الدكتور زكي مبارك في الذهاب الى ان التصوف مشتق من الصوف ودليل كل الميل الى تقرير ان هذه الكلمة معربة عن كلة تيوصوفية اليونانية على ما اوضحناه تفصيلاً في رسالتنا في الصوفية وقد كتبت باللغة الانكليزية ونشر المقتطف ترجمتها العربية في عدد يونيو الماضي فليرجع اليها من يشاء

ولنا هنا ان نقول ان ابحاث الكتاب كلها ناطقة بأن المؤلف ذو عقل فلسفي ظاهر كل الظهور في دراساته وهو يدرس الوجوه المختلفة للرأي الواحد وقد يصل حاله كما ذكر الاستاذ جاد المولى بك الى حد الغرابة حين يعرض علينا عدة صور لرأي من الآراء حتى لتراه متشيعاً لكل صورة منها كأنهُ رأيه الوحيد وكأنهُ اشخاص عدة يتحاورون لا شخص واحد.

ومن اهم موضوعات الكتاب التصوف في الأدب العربي والذخائر المثبتة في الأدب الصوفي ومحاولة فلسفية في نشأة التصوف في الاخلاق ، والدين في اذهان الصوفية وهذه كلها فصول لا شك مهمة دالة على سعة اطلاع المؤلف ورسوخ قدمه في نقد الأدب وتذوق معانيه الى ابعد حد ممكن مع الوضوح التام والجلاء المستفيض . فعبارات الكتاب صريحة فائقة وحماسة المؤلف رائعة واسلوبه متين ولكني اصرح بانني وان اثنيت على عقله الفلسفي وأطريتهُ كل الاطراء فاني اخالفه في كثير مما ذهب اليه في نقد التصوف والصوفية وفي كثير من آرائه التي بسطها في كتابه واقول انهُ في كتابه هذا العظيم قد عرض للادب والاخلاق في التصوف الاسلامي ولكنهُ لم يعرض للتصوف في ذاته عرض من وقف على حقيقته واسراره . والظاهر

من كلامه في فاتحة الكتاب انهُ اعتمد فيما دوَّنهُ في كتابه على ما قرأه مع الاستاذ ماسينيون من فقرات من كتاب الزهرة في سنة ١٩٢٧ فعرف ميله الى درس العلاقة بين الحب العذري وبين التصوف فتسرب الى صدره « بصيص من ضوء الفكرة التي يقوم على أساسها هذا الكتاب » وانهُ في خريف سنة ١٩٣٠ وشتاء سنة ١٩٣١ حضر دروس الاستاذ ماسينيون بالكوليج دي فرانس في العلاقة بين التصوف والحب الرقيق فازدادت عنده الفكرة وضوحاً وصحت عزيمته « على درس أثر التصوف في الادب والاخلاق » .

ومن هذا يتضح ان الدكتور زكي مبارك جعل الاساس الذي بنى عليه كتابه امرين الاول العلاقة بين الحب العذري وبين التصوف والثاني العلاقة بين التصوف والحب الرقيق وهذا ما جعله يعد جميل صاحب بثينة والمجنون صاحب ليلى كما عد العاشق ابن الدبيثه من اقدم الصوفية في عالم الحب العذري او الحب الرقيق

فعند الدكتور ان التصوف خليق بأن يحجب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية وهو يمثله في صور كثيرة « فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة حين تقوم على مبادىء تتصل بالروح والوجدان » وقد ذكر لكل من هذه الصور ما شاء شواهد تدل على صحة ما ذهب اليه فأورد أبياتاً لكل عاشق منها قول ابن الدبيثه يخاطب معشوقه اذ قال :

وإني لأستحييك حتى كأنما ... عليَّ بظهر الغيب منك رقيب
ولو أني استغفر الله كلما ... ذكرتك لم تكتب عليَّ ذنوب

الى ان قال فلاخير في الدنيا اذا أنت لم تزر ... محبًّا ولم يطرب اليك حبيب

وقد استخلص من ذلك كله ان هؤلاء العاشقين المتزمتين متصوفون قحاح . ولماذا ؟ لأنهم صادقون في حبهم العذري الرقيق لا يرجون من وراءه شيئاً دنيًّا

ولعمري ان العشق عذريًّا كان او غير عذري والحب رقيقاً كان او غليظاً كلاهما في واد والتصوف في آخر فالعشق هو العشق لا يحتاج الى تعريف واما التصوف الذي يعرفهُ اهله وتواضع عليه اربابه واصحابه والعارفون دون غيرهم ممن اراد ان يتزيا بزيهم وينسب نفسه زوراً اليهم ودون جماعة المستشرقين وغير المستشرقين ممن كتبوا في التصوف على غير ذوق ومعرفة ، فأساسه حب الله وحده وحب رسوله وايثار هذا الحب على ماعداه ثم الزهد في الدنيا وايثار الحياة الآخرة عليها ويتصل بذلك كثرة ذكر الله في السر والعلانية والصلاة والسلام على رسول الله جهد الطاقة . وهذا مع التمسك بأهداب الشريعة والعض عليها بالنواجذ وجعل احكامها في جميع فروعها ومناحيها دستوراً للمتصوف الصادق لا ينفك عن السير على منهاجها في حياته حتى يلقى الله تعالى فيلقاه كما يلقى المحب حبيبه بعد طول النوى والبعاد

وسواء أكان اسم التصوف مشتقًّا من الصفا على ما ذهب اليه الدكتور ابراهيم ناجي وجماعته أم من الصوف كما ذهب اليه الدكتور زكي مبارك وجماعته أم من اليوصوفية على ما ذهب اليه كاتب هذه الاسطر وجمع آخر فإن لا مشاحة فيه بين مؤداه واحد لا يتغير وهو حب الله وكثرة ذكره وحب رسوله وكثرة الصلاة عليه والتمسك بآداب الشريعة فيما صح نقله وثبت من الكتاب والسنة وعبادة الله في السر والعلانية والظاهر والباطن جميعاً

ولهذا كان من غير المفهوم عند ارباب التصوف قول المؤلف (ان الصوفي المعتدل يقبل من شيخه كل شيء كما يقبل النصراني المعتدل من القسيس كل شيء والصوفي المعتدل يقدم كلام شيخه على القرآن والحديث (حاشا وكلا) كما يقدم النصراني المعتدل كلام ارخبان على كلام الانجيل اما الصوفي الناثر فيرفض جميع النصوص ويتسامى الى مخاطبة الله والفهم عنهُ بلا مرشد ولا دليل وهنا اقول بصراحة (!) ان هذا اساس متين لبناء الشخصية الخلقية وان غضب رجال الدين)

ولسنا ندري من أين عرف الدكتور زكي مبارك ان الصوفي المعتدل او غير المعتدل او الناثر او غير الناثر بل الصوفي مطلقاً يؤثر كلام الشيخ على القرآن او يرفض النصوص ويتسامى الى مخاطبة الله والفهم عنه تعالى بلا حاجة الى مرشد او دليل انهم ان هذا افتئات على الصوفية والتصوف واي افتئات ونسبة القوم على ما هم منهُ براء فهم اشد الناس تمسكاً بالقرآن والسنة واشدهم قبولاً واذعاناً للنصوص واعتصاماً بها

ولعلَّ الدكتور عرف عنهم ذلك من صحبته لجماعة المستشرقين واخذه التصوف عنهم وقراءته لبعض الكتب التي لا يعول عليها في نقل اخبار القوم ومعرفة حقيقة حالهم ولعله في الطبعة الثانية من الكتاب يستدرك هذا الخطأ والشطط والتجني على الصوفية فيعود الى انصافهم ولا يتخذ ذلك الشيخ الذي كان من سوء حظه ان صحبه في سنة يس واتخذه شيخاً له ثم رآه غير اهل للمشيخة ولا للارشاد حجة عليهم ودليلاً على حالهم . كما رجع الدكتور عن التجني على الامام الاكبر حجة الاسلام ابي حامد الغزالي فرأيناه في هذا الكتاب يبرأ الى الله مما رماه به من قبل في كتابه « الاخلاق عند الغزالي » وجاء يصرح الآن علناً بأنهُ لم ينصفهُ فيما كتبهُ عنهُ ونسبهُ اليه فهذا الرجوع الى الحق هو حقاً من ثمرات العلم الصحيح وحسنات العقل الذي كمل نضجه ولعل صديقنا الدكتور زكي مبارك ان التصوف لا يوقف عليه الا من صحبة الرجال المشتغلين به لا الحاقدين عليه ولا المتصدين لنقده والتصدي — على ما يزعم ارباب البحث الجامعي — الى كشف عيوبه ومحاسنه وقوته وضعفه

ثم ان زعم الدكتور ان الصوفية قسموا مريديهم في الصوم ونحوه الى عوام وخواص وخواص الخواص فقضوا بان صوم الخصوص لا يقع فيه الفطر بالطعام والشراب وانما يقع

بارتكاب المآثم ونهش الاعراض — ونقول ان هذا الزعم لا أصل له عند العوام لا من حيث قسمة الفريدين الى هذه الاقسام . واما من حيث انهم لا يقضون بوقوع الضرر بالطعام والشراب فهذا ما لم يقل به احد قط . وانما هم يشددون على الخواص فيحذرونهم من ارتكاب اي مأثم صغيراً كان او كبيراً مما نهى عنهُ الشرع ولو نهي كراهة فان ارتكابه في حقهم يبطل صومهم كما يبطله تعاطي الطعام او الشراب سواء بسواء

هذه ملاحظات عاجلة او خاطفة كان لا بد لنا منها وهي لا تحول بتاتاً دون تقدير كل منصف لجهود الاستاذ الدكتور زكي والثناء عليه اطيب الثناء على ما افنى من عمره المبارك في سبيل الدرس والبحث والتأليف والتصنيف حبًّا منهُ في خدمة الادب والاخلاق اكثر الله في الامة من امثال الفضل والتضحية وأثابهم على خدمتهم الناقصة وتجاوز عن تقصيرهم ما داموا حسن النية وحب الخدمة وانهم فيما يبحثون ويكتبون ويدرسون ويؤلفون

الفقير احمد عوض

محاضرة المركز . كاليفر

كان لمحاضرة الدكتور كيلند التي عنوانها « مشروع تنظيم السكان في مصر » وقع كبير في الدوائر المصرية من وطنية وأجنبية التي تعنى بدراسة مشكلات مصر الاجتماعية . وذلك حينما بترجمتها ونشر الجانب الاول منها في مقتطف هذا الشهر على ان ننشر تتمتها في مقتطف يونيو القادم . وقد فعلنا ذلك بموافقة الدكتور كيلند نفسه وسماح الدكتور ليفي محرر مجلة « مصر المعاصرة » الفرنسية حيث ينتظر أن ينشر نص المحاضرة كاملاً باللغة الانكليزية في عددها القادم

دليل موجز

لمعروضات دار الآثار العربية

القاهرة ١٩٣٩ — ١١٣ ص ، ٢٨ لوحة

قد يعجب القارىء أن تعرض هذه المجلة لنقد دليل موجز لدار من دور الآثار . والحق ان النقد يقع على كل شيء فليس سواء كان بحثاً او رسالة او ورقة او دليلاً

ويسرنا ان نقول إن هذا الدليل مقطوعة علمية لها شأنها . ذلك لأنهُ يسرد تاريخ تكوُّن دار الآثار العربية في أسلوب جذاب ثم يفيض في تاريخ الفن الاسلامي على العموم وفي خصائص هذا الفن الجميل . فهنالك التحليل وتدقيق النظر واستخراج النظريات وشرح الاصول

ويتلو هاتين الافاضتين القائمتين مقام التوطئة والتعريف وصف شامل مفصل لجميع ما تضمه دار الآثار العربية في القاهرة . ويجري الوصف من بهو الى بهو على التدريج والترتيب . وليس الوصف في النسخة العربية بالجافّ ولا بالسطحي ، بل هو لطيف المداخل والمخارج ، بعيد المرمى ، كشّاف ، رشيق

وقد كتب هذا الدليل بالفرنسية الاستاذ المستشرق جاستون فييت ، ونقله الى اللغة العربية بتصرف واضح الدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية . وما نظن الترجمة في مثل هذه الحال بأيسر من التأليف . والسبب أن اللغة العربية لا تزال مفتقرة الى أساليب التعبير في شتى العلوم وضروب الفنون . وقد سبق للدكتور زكي حسن أن ألف كتباً في الفن الاسلامي أشار المقتطف الى نفاستها يوم خرجت . وكان في أسلوب تلك الكتب شيء من التقرّي والتحسس . أما هذا الدليل فقد استوى فيه الأسلوب الفني وأخذ يدنو من الثبت والاستقرار

ولعلّ الدكتور زكي حسن يخرج لنا في كتبه المستقبلة مسارد نصيب فيها ألوان التعبير الفني ، حتى تتم الفائدة

ب . ف

مباحث عربية

تأليف بشر فارس ، الدكتور في الآداب من السوربون

١٠٠ ورقة من القطع الكبير . مطبعة المعرف ومكتبتها بمصر . الثمن ١٥ قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

تلقينا هذا الكتاب الجليل والمقتطف ماثل للطبع . ومثل هذا الكتاب لا تكفيه الاشارة ولا يظفر به النظر السريع . وفي العدد المقبل سنفرد له نقداً يجدر به . وحسبنا اليوم تقديمه لقراء اللغة العربية . وأول ما يسترعي النظر في أسلوب الكتاب من الطرافة مبنىً ومعنىً ومنهجاً . أما المبنى فوضوح العبارة وبلاغتها ودقتها العلمية ، واما المعنى فجدة الموضوعات ومعالجتها بنظر متمكن وذهن مثقف غاية الثقف . واما المنهج فتلك الحواشي المستفيضة والتعليقات الغزيرة والمراجع الوافية وفيها مخطوطات كثيرة ثم تلك العلامات والرموز التي ابتكرها المؤلف تيسيراً للمراجعة ، ثم تلك المسارد للمخطوطات والاصطلاحات العربية وغير العربية

فهذا الكتاب الادبي المواد ، العلمي الأسلوب والمنهج يُعدّ توجيهاً جديداً في الإنشاء والبحث . ويضاهي جلائل المؤلفات الافرنجية في التأليف العلمي . ولا غرابة في ذلك فالمؤلف ممن له مكانته في الدوائر العلمية الاوربية ، بدليل انهُ يشترك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية الصادرة في هولندة وفي مجلات الاستشراق الرفيعة ، وقد سبق للمقتطف أن أشار الى ذلك

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

صدر الكتاب السنوي التاسع لهذا المجمع الجليل محتوياً على المحاضرات التي أُلقيت في مؤتمره التاسع السنوي واجتماعاته الشهرية من ابريل سنة ١٩٣٨ الى آخر مارس ١٩٣٩ وهو كجميع الكتب السنوية التي سبقتهُ حافل بالبحوث العلمية المفيدة لكبار المشتغلين بالعلم في مصر . في صدر الكتاب محاضرة الرئيس للدكتور حسن صادق بك وعنوانها « الذهب » وهي بحث تاريخي جيولوجي صناعي اقتصادي فيه نبذة عن الذهب في مصر في العصور القديمة ، ثم كيف يعدّن

الذهب ، والجانب الاخير موقوف على متاجم الذهب التي تشغلها الحكومة المصرية او الشركات الاجنبية في الاراضي المصرية وما يستخرج منها وما قيمتهُ وما المصاعب التي ذللتها الحكومة

ويلي ذلك محاضرتان صحيتان الاولى للدكتور عبد الواحد الوكيل بك في اتجاهات علم الصحة . والثانية للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك موضوعها اثر الامراض المتوطنة في كفاءة الجندي المصري . وقد طبعها القراء في مقتطف يونيوسنة ١٩٣٨ . ثم ثلاث محاضرات نفيسة في شؤون مصرية بيولوجية منها القطن المصري للدكتور محمد عزيز فكري . والثانية تميز الحالة الجنسية في النباتات عامة والنخيل خاصة للدكتور محمد بهجت والثالثة في بيئة بحيرة المنزلة للدكتور عبد الحليم منتصر . اما المحاضرات الاخرى فهي « ابو الهول » للاستاذ سليم حسن . وتوافق خواطر المكتشفين والمخترعين للاستاذ البرقوقي (انظر مقتطف فبراير ١٩٣٩) . وتبسيط الحساب بالطرق الآلية والتخطيطية للاستاذ فريد بولاد بك

فالكتاب يجمع طائفة ممتازة من البحوث العلمية الدقيقة وهو علاوة على ذلك آية في جودة الطبع وصوره مطبوعة اكثرها بالروتوغرافور ومنها صور بالالوان لبعض الآلية والحلى الذهبية عند قدماء المصريين تشهد أنها لا يمكن ان تكون أشد اتقاناً مما هي

شهران في لبنان

وبلاد اليونان وايطاليا وطرابلس الغرب

بقلم الصحافي المجوز — صفحاته ٢٦٨ صفحة طبع بمطبعة الامة بمصر — ثمنه ٠٠ قروش

الناس فريقان ، فريق ينفرب عن الاهل والاصدقاء ويسافر ولا غاية له الا النزهة وراحة الجسم من عناء الاعمال وفريق آخر يتجشم متاعب السفر وعناءه وغايته الاستفادة من رحلاته وتنقلاته وجولاته في البلدان التي يزورها ثم الافادة واطلاع الغير على ما شاهده فيشترك القارىء في رحلاته ومشاهداته عن طريق المطالعة والاستاذ توفيق حبيب الصحافي المجوز صاحب المقالات التي يكتبها في الاهرام القراء في طليعة الفريق الثاني فقد كانت رحلته الاخيرة في صيف ١٩٣٨ الى لبنان وبلاد اليونان وايطاليا وطرابلس الغرب فأخرج وصفها في كتاب زينهُ بكثير من الصور . يطالعهُ القارىء فيجد نفسه متنقلاً من بلد الى آخر فهذه بلاد اليونان وآثارها ومتاحفها وحمامات نوراكي وسهل الاكروبول وتلك نابولي وفينيسيا وفورنسا مدينة الآثار والفنون وروما المدينة الخالدة . أما لبنان فقد خصهُ بفصول عن نهضته الادبية والصحافية ومصايفه المشهورة وأهل العلم والفضل فيه وأخيراً طرابلس الغرب فذكر لمحة تاريخية عن طرابلس القديمة والجديدة ووصف أسواقها الوطنية ومقاهيها وأحياءها وما اجتمع عنده من أخبار النهضة الادبية والصحافية فيها